الدرس السابع عشر

انهيار المملكة الشمالية

2ملوك 1: 1 – 17: 41

1. مقدمة

يستمر سفر الملوك الثاني في تقييم الحكم الملكي ويتتبع الأحداث التي أدّت إلى سبي كلتا المملكتين. كانت المملكة الأولى التي انهارت بفعل دينونة يهوه هي المملكة الشمالية، حيث سيقت إلى السبي على يد الآشوريين في عام 722 ق م. أمّا المملكة الجنوبية، فبقيت فترة أطول، لكنها أدينت في نهاية المطاف من خلال السبي البابلي الذي بدأ في عام 605 ق م. ونحن نجد توثيقاً لانهيار المملكة الشمالية في 2ملوك 17 وتختص معظم المادة الموجودة في الأصحاحات السبعة عشر الأولى بالمملكة الشمالية. وسيتناول هذا الدرس الأحداث المرتبطة بالمملكة الشمالية في الأصحاحات 1-17.

كان هم كاتب سفري الملوك (أي الجامع الأخير لمادة السفرين) أن يجيب عن سؤالين:

1. لماذا وقعت الدينونة على أمّة لها وعود يهوه؟
2. كيف وقعت الدينونة؟

من أجل الإجابة عن هذين السؤالين أدخل الكاتب مادة تتتبّع التطّورات التي أدّت إلى سقوط كلتا الأمّتين. وهو يقوم بشكل مستمر بتقييم الحكم الملكي، مقدّماً الأدلة على أن الدينونة كانت مُستَحقَّة. لكن الدينونة كانت في كلتا الحالتين بطيئة في قدومها. فقد أُعطيت المملكة الشمالية ما يزيد على مئتي عام لكي تصلح أمرها وتطيع يهوه، بينما أُعطيت المملكة الجنوبية ما يزيد على ثلاث مئة سنة. وهكذا أخّر الله (في نعمته) وقوع الدينونة، على الرغم من استمرار إنذار الله للشعب عن طريق الأنبياء. ويبيّن سفرا الملوك (الأول والثاني) فشل الأمّة تحت الحكم الملكي، وقد مهدت فترة الارتداد الطريق لعهد الأنبياء العظيم. وبينما كان الحكم الملكي ينحلّ ويفسد، استمر يهوه في توكيد سيطرته عليه من خلال الأنبياء.

2. القصد من سفر الملوك الثاني

وصف إليوت الغرض من سفر الملوك على هذا النحو:

"يهدف سفر الملوك الثاني إلى تقييم انهيار الحكم الملكي
مع شرح مدّ حياة المملكة بالنعمة
من خلال الأنبياء والملوك الصالحين في الجنوب."[1]

إن النقطة الأكثر أهمية التي يؤسس يهوه بموجبها حكمه هي أنه رغم كل نعمة يقدّمها، إلا أنه لن يسمح للأمة دائماً بأن تستمر في الطريق الذي تسلكه، وسيحافظ على حكمه وسلطته، وسيستخدم التأديب مع شعبه لتحقيق هذا الأمر. وحتّى عندما يحل الدمار ويأتي السبي في نهاية الأمر، لن يلغي الله برنامجه مع شعبه. وسيقوم يهوه، من خلال أنبيائه والخدمة الإصلاحية لبعض ملوك الجنوب الصالحين، بالإبقاء على بقية تقية من الشعب لنفسه يستمر من خلالهم في برنامجه الإلهي كما هو في العهد الإبراهيمي.

3. بذور الدينونة في المملكة الشمالية

ظهرت في سفر الملوك الأول مشكلتان رئيسيتان على الأقل أسهمتا في جلب دينونة الله على إسرائيل في الشمال.

أ. نظام العبادة الذي غيّره يربعام

تمثّلت البذرة الأولى للدينونة في تغيير يربعام لنظام العبادة. وعلى الرغم من أن ذلك لم يعنِ رفضاً كاملاً لعبادة يهوه، إلاّ أن العبادة التي أدخلها تضمنت عبادة الأوثان في معظمها.

ب. تعزيز آخاب لعبادة البعل

[1] Elliott E. Johnson, "2 Kings" (class lecture notes, Dallas Theological Seminary, Fall 1977).

برزت البذرة الثانية للدينونة بزواج آخاب من إيزابل، ممّا أدّى إلى تبنّي عبادة البعل بصفتها دين الدولة الرسمي. وقد أقام الله لحسن الحظ إيليا ليوقف هذا الأمر وليوجّه ضربة موجعة لأنبياء البعل. غير أن عبادة البعل استمرت في تأثيرها على المملكة الشمالية حتى في عهد ياهو.

وفي سفر الملوك الثاني زُرِعَتْ بذار دينونة جديدة:

جـ. استفسار أخزيا من بعل زبوب

يبدأ الأصحاح الأول من سفر الملوك الثاني بمشهد أخزيا وهو يعاني من مرض خطير بعد تعرُّضه لحادث سقوط. وبدلاً من أن يلتجئ ليهوه، اختار أن يرسل رسولاً إلى إله بعل زبوب، إله عقرون في فلسطين:

"اذهبوا اسألوا بعل زبوب إله عقرون إن كنت أبرأ من هذا المرض" (1: 2)

كان هذا قراراً خطيراً، لانه كشف افتقاره الكامل إلى الإيمان بإله إسرائيل. ونتيجة لذلك، طلب الله إلى إيليا أن يوبّخه.

"هكذا قال الرب: 'أليس لأنه لا يوجد في إسرائيل إله أرسلت لتسأل بعل زبوب إله عقرون؟'" (1: 6)

من الواضح أن الملك لم يكن يوقّر يهوه أو يحسب له حساباً، ومن هنا لم يكن لديه أي توفير للشريعة أو إحساس بالمساءلة أمام الرب. فكانت هذه البادرة إهانة للرب من أعلى مستوى.

د. ازدراء يهورام بنعمة الله

جاءت بذرة أخرى من بذار الدينونة في استجابة يهورام السلبية للنعمة التي أظهرها الله. فمات بكر أخزيا كإشارة على دينونة الله عليه بسبب عدم إيمانه كلياً بيهوه. وتربع على العرش ابن آخر لآخاب، ألا وهو يهورام. وعلى الرغم من أنه كان أفضل من أبيه نوعاً ما، (3: 2)، إلا أنه كان شريراً أيضاً. وإن الأمر المذهل في يهورام هو أنه لم يتب قط على الرغم من كل الأحداث الهامة التي كان يُفتَرض أن تقوده إلى التوبة. إذ سبق أن رأى الله وهو يدين أباه وأخاه، فكان ينبغي عليه أن يكون أكثر تجاوباً مع الرب. وقد أبدى الله نعمة وفيرة أثناء حكم يهورام، إذ جرت خدمة أليشع أثناء حكمه.[2] فقد جلب الله أعمال تأديب على الأمة، لكنّه في سيادته حماها، إذ سمح الله ليهورام بهزيمة ملك موآب الذي تمرّد عليه. وعندما غزا السوريّون (الآراميون) الأرض، استخدم الله أليشع في إحباط الهجوم وإفهام يهورام أن الله مسيطر سيطرة كاملة على خير وسلام إسرائيل (6: 20 – 23).

[2] بالإضافة إلى فكرة النعمة، أوضح هيتر الصلة بين معجزات أليشع وبين مجال الطبيعة، وقال إن هذه المعجزات تبيّن تفوّق يهوه على عبادة الخصب في الشمال، وتبيّن بالتالي تفوّقه على الآلهة الزائفة التي عبدها بنو إسرائيل (Homer Heater, Jr., "A Theology of Samuel and Kings," in *A Biblical Theology of the Old Testament* [Chicago: Moody Press, 1991], 135).

لكن نعمة الله ظهرت من زاوية مختلفة حتّى أثناء ذلك. "بيّن الشفاء المعجزي للقائد نعمان السرياني أن يهوه قادر على إعادة الحياة للجسد (اللحم) الميت ("فرجع لحمه"، 2ملوك 5: 14)، وأنه منعم على الغرباء، وأنّ نبيّه لم يكن من المرتزقة كما كان معظم أنبياء إسرائيل."[3] كانت هذه أدلة قوية على نعمة الله نحو يهورام، لكن استجابته كانت على الدوام غير كافية. ونتيجة لذلك أرسل يهوه الآراميين فضربوا حصاراً حول السامرة. كان يُفتَرَض أن تكون الشهادات على نعمة يهوه من خلال أليشع حافزاً كافياً لتواضع يهورام ولجوئه إلى الرب وطلب رحمته في هذه المحنة. لكنه توعّد بقتل أليشع قائلاً،

"هكذا يصنع لي الله ويزيد إن قام (بقي) رأس أليشع بن شافاط عليه اليوم" (6: 31).

اتّسم رد فعله بالحمق. ولو كان في مقدور شخص أن يمد يد العون ليهورام أثناء هذا الحصار الفظيع عندما كانت المدينة كلها تتضور جوعاً ويأكل بعضها لحم بعض، فلن يكون هذا الشخص غير أليشع. لكن رفض يهورام لأليشع كان رفضاً لله أيضاً، ولم يكن يهورام مستعداً للجوء إلى الرب.

غير أن نعمة الله كانت عظيمة. فعلى الرغم من إصرار يهورام على رفض يهوه، إلاّ أن يهوه قام في سيادته ونعمته برفع الحصار عن عاصمة السامرة وتوفير الطعام لسكّانها. لكن كيف يستجيب يهورام لهذا الإظهار غير المستحَق لنعمة يهوه؟ الجواب: *لا استجابة*! يصمت يهورام على نحو غريب ولا يتأثر بنعمة الله الخالصة.

لكن الرب يعطي يهورام فرصة أخرى في 8: 1–6. نجد هنا يهورام يتحدث حديثاً خاصاً إلى جيحزي، خادم أليشع، الذي أخبره بكل الأمور العظيمة التي سبق أن فعلها أليشع (8: 4). وأثناء حديث جيحزي إليه عن المرأة الشونمية التي أحيا أليشع ابنها، تأتي المرأة نفسها وتعيد سرد القصة على الملك: فيستجيب الملك برد كل ممتلكاتها السابقة إليها. غير أن الأمر الملفت للانتباه هنا هو عدم كفاية استجابته. فقد سنحت له فرصة ممتازة هنا لمراجعة كل أعمال نعمة الله من خلال أليشع، لكنّه لا يتعجب ولا يبدي رهبة وخشوعاً، وهكذا لا يُظهر مرة أخرى أي تأثُّر. وإنه لمن السخرية الأدبية أن ابن المرأة الشونمية الذي أعيد إلى الحياة كان صورة لما يمكن أن يختبره الملك والأمّة روحياً. اكتفى يهورام بعمل إحسان صغير إلى المرأة في الوقت الذي كان يتوجب عليه أن يلقي بنفسه كلّياً بين يدي يهوه في تذلّل وتواضع كاملين.

[3] المرجع السابق.

كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة ليهورام، فكان لقراره عواقب خطيرة على المملكة الشمالية. وردّاً على ذلك طلب الله من أليشع أن يقوم بأمرين. أولاً، أرسله إلى دمشق لكي يعلن أن حزائيل سيصبح ملكاً وأنه سيُنزل بإسرائيل تأديباً فاجعاً عظيماً (لنلاحظ رد فعل أليشع العاطفي في 8: 12). ثانياً، مَسَحَ أليشعُ ياهو ملكاً على إسرائيل، وسيُنزِل هذا الملك دينونة كاملة ببيت آخاب.

هـ. إصلاح ياهو الجزئي

تمثّل جزء من دينونة الله على يهورام تكليف الله لياهو (وهو قائد عسكري) بالإطاحة بيهورام، والقضاء الكامل على بيت آخاب، وقتل إيزابل، لكن ربما بطريقة أكثر دموية ممّا قصد الرب. فوضع هذا نهاية لبيت آخاب، أي السلالة العمرية. وفضلاً عن ذلك، مثّل هذا ضربة ساحقة لعبادة البعل: "واستأصل ياهو البعل من إسرائيل." (10: 28). وكافأه الله على مثابرته في الإصلاح ببركة استمرار سلالته مدة أربعة أجيال أخرى على الأقل.

غير أن إصلاح ياهو كان ناقصاً. فعلى الرغم من أنه قتل كل عبّاد البعل، إلا أنه كان شخصاً متمركزاً حول ذاته، وكرّر خطية يربعام، حيث أبقى العجول الذهبية التي كانت في بيت إيل ودان (10: 29–31). لم يكن ياهو مطيعاً إلاّ في النواحي التي أحبَّ أن يطيع فيها، ونتيجة لذلك، بدأ الله إجراءات تأديبية جديدة. فبعد إعطاء تقويم لياهو، يقول النص:

"في تلك الأيام ابتدأ الرب يقصّ (أجزاء من) إسرائيل، فضربهم حزائيل في جميع تخوم إسرائيل" (10: 32).

وبدأت بهذا مواجهات كر وفر مع الآراميين امتدّت على مدى سلالة ياهو. هاجمهم الآراميون، لكن الله لم يسمح لهم بالقضاء على شعبه بسبب العهد الإبراهيمي (13: 23)! وقد سبق أن وعد الله ياهو بأن تجلس أربعة أجيال من سلالته على عرش إسرائيل. وقد تقوّى الآراميون أثناء عهد سلالة ياهو، واشتدت الضربات التي أنزلوها بإسرائيل. وفي نهاية المطاف تقلصت إسرائيل إلى دولة لا تزيد حدودها كثيرً عن السامرة. وفي عام 803 ق. م.، صرخ الشعب إلى الله طالبين منقذاً، فأرسل لهم الله منقذاً هو "عداد – نيراري الثالث" (حكم 810 – 783 ق م؛ انظر 2ملوك 13: 3–5). هزم هذا الملك الآشوري الآراميين معطياً إسرائيل لحظة راحة لالتقاط الأنفاس. وإنه لأمر ذو دلالة أن الله أوصلهم إلى نقطة لجأوا عندها إليه. لكن لم يطل ذلك لسوء الحظ، إذ لم يتجذّر هذا الاتجاه. وجاء يربعام الثاني، فحدث تدهور روحي، على الرغم من وجود ازدهار اقتصادي. لم يكن هنالك تغيير دائم في القلب، وزاد تورّط بني إسرائيل في خطاياهم. كان كل نسل ياهو فاسدين، وعندما تربع الجيل الرابع على العرش، سمح الله باغتياله.

و. الخاتمة

صارت المملكة الشمالية منذ هذه النقطة فصاعداً مملكة تفتقر إلى الثبات السياسي بشكل كامل، وتكررت فيها الاغتيالات. وبدأ في هذه الفترة أيضاً ظهور التهديد الآشوري. ودفعت إسرائيل الجزية تحت حكم منحيم، وتمّ الاستيلاء على قسم من أراضيها وسبي عدد من أبنائها تحت حكم فقح. وتحت حكم هوشع حوصرت العاصمة وأخذت أشور إسرائيل إلى السبي. فكان هذا التطبيق النهائي لتثنية 28، وتتميماً للتحذير الموجّه إلى سليمان (1ملوك 9: 6-9)، وتحقيقاً لنبوءة الله حول يربعام (1ملوك 14: 15). كانت هذه دينونة مستحقَّة منذ حكم يربعام، وقد اكتمل استحقاقها الآن من خلال الملوك المتعاقبين على عرش إسرائيل. لم يكن السبي الآشوري نتيجة للتفوق الآشوري العسكري، وإنما عاقبة لخطايا إسرائيل (انظر 17: 7 فصاعداً).

4. دور الأنبياء

لا يمكن إعطاء تقييم كامل لهذه الفترة من تاريخ إسرائيل دون أن نأخذ في اعتبارنا الأنبياء الكثيرين الذي أقامهم الله. وسأقدم تعليقاً مختصراً حول بعضهم.

أ. أليشع

كان دور إيليا يتسم بالمواجهة مع عبادة البعل، أمّا دور أليشع فكان دور نعمة. والاستجابة الصحيحة لخدمة النعمة هي الإيمان، وهذا هو ما يبحث عنه أليشع. وهو يجد هذا الإيمان في أشخاص عديدين، لكنه لا يجده لسوء الحظ في يهورام.

ب. يونان

خدم يونان نبيّاً أثناء حكم يربعام الثاني (حوالي 780 ق م). وهو يجيب عن السؤال: ما الذي يحدث لعالم الشعوب الأممية عندما يؤدّب الله شعبه، أي عندما يكونون خارج البركة؟ هل ينسى الله العالم الأممي؟ إن الجواب هو "لا." يبيّن يونان أن الله يرسل "مرسلين" خاصّين عندما لا يكون في مقدوره استخدام شعبه. لم ينس الله نينوى والآشوريين أثناء زمن انحطاط إسرائيل، وهكذا كان يونان ينفّذ قصد الله للأمة في أن تكون وسيطاً للبركة وتعريف العالم الأممي بيهوه.

ج. عاموس (حوالي 760 ق م)

جاء عاموس أثناء حكم يربعام الثاني. واتسمت فترته بالازدهار الاقتصادي في إسرائيل ممّا أدّى إلى الاستنتاج أن الأمّة يمكن أن تعاني من الانحطاط الروحي وتتمتع في نفس الوقت بالازدهار الاقتصادي. لكن عاموس ينتقد هذه النظرة ويقول ما مفاده: "إن هذا لن يدوم."

د. إشعياء

كتب إشعياء أثناء الفترة 739 – 686 على خلفية التهديد الآشوري. وتنبأ بالإطاحة بالمملكة الشمالية. وأنعش الرجاء في أن المملكة الجنوبية لن تسقط في يد الآشوريين (الإصحاحات 1– 35). وتنبأ بأن يهوذا ستُسبى إلى بابل.

5. صلة سقوط إسرائيل بالعهود

كيف يؤثّر سقوط إسرائيل في عام 722 ق م في وعود الله في العهود الكتابية؟[4] وماذا عن العهدين الإبراهيمي والداودي؟ لم يخلف الله وعوده بسماحه بأن تقاد إسرائيل إلى السبي. فالله حر في أن يضع على الرف جزءاً من الشعب بسبب عدم إيمانهم ما دام يحتفظ ببقية مؤمنة يستطيع العمل من خلالها. فما زالت هنالك مملكة يهوذا في الجنوب، وما زال هنالك نسل داود على عرش تلك المملكة. سيستمر برنامج الله، فما زال أمامهم شعب يريد أن يعمل من خلاله.

[4] يحدد ميريل عام 722 ق م كتاريخ لسقوط السامرة (انظر . . . *Kingdom of Priests*, 398) أمّا ليزلي ماكفول فيحدد تاريخ سقوطها عام 723 ق. م. ("A Translation Guide to the Data in Kings and Chronicles," *BibSac* 148:589 [Jan-Mar, 1991]: 35).